

## بذل الذات ومسيحنا المصلوب

- يشعر كثيرون أن بذل الذات فيه حرمان وخسارة وتذلل من أجل المحبة للغير، لكن إذ يتحدث السيد المسيح عن نفسه بكونه الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن العالم (يو 10: 11؛ 3: 16) يقدم لنا نفسه مثلاً لبذل الذات، يقدمه لكل إنسان حتى للطفل الصغير، فماذا يعني بالبذل هنا؟
1. إذ بذل الراعي الصالح نفسه لحساب العالم كله، معلناً أنه يموت لكي يتمتع المؤمنون به بالحياة الأبدية (يو 3: 16)، ويُصلب لكي يملك الكل ويستريحون. البذل هنا دعوة موجهة للمؤمن كي يتمتع كسفير للمصلوب (2 كو 5: 20)، أن يصلب معه (غل 2: 20). يشعر المؤمن أنه ببذله لا يفقد شيئاً بل يأخذ شركة حب ومجد وكرامة؛ يمكن أن يمارس هذا الحب حتى إن كان طفلاً فقيراً أو مريضاً أو مسجوناً.
  2. وقف السيد المسيح عند خزانة الهيكل، فلم يجد في مقدمة الأغنياء بذلاً، بينما مجدّ الأرملة التي قدمت قلبها مع فلسين فقط (لو 21: 2)، إن تقدمتها بذلاً. في يوم الرب العظيم سجد طفلاً بطلاً يُدهش له السامثيون، لأنه قدم كأس ماء بارد (مت 10: 42)، وإذا به يفوق كثير من قادة الكنيسة الذين يعددون أعمالهم المجيدة وخدمتهم وعطاءهم، لكنهم بالكاد يخلصون كما بناه (1 كو 3: 15).
  3. يتمتع البازل الحقيقي بمفاهيم إنجيلية إيجابية مفرحة، نذكر على سبيل المثال التالي:
    4. في ممارسته للتوبة لا يضطرب مستصعباً كيف يتخلى عن عاداته الشريرة التي عاشها لسنوات، لكنه يترك مع الابن الأصغر خرنوب الخنازير، وينطلق لينعم بمُعانقة أبيه السماوي (لو 15: 16). يجد السماء بيت أبيه مفتوحة له تُرحب به. في توبته ينطلق مع ديماس اللص فلا يشعر بالآلام الصليب ولا بنظرات الناس إليه، بل تتهلل أعماقه حين يسمع صوت مخلصه قائلاً له: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لو 23: 43).
    5. في جده للعالم وتتسكّه عن ملذاته، لا يشعر بحرمان من الملذات، بل ينطلق كمن تحرّر من عبودية العالم، فعوض أن يملكه العالم، يملك هو العالم كصاحب سلطان. يرى نفسه محباً للبشرية فيتهلل إذ يلمس عمل روح الله القدوس في الشعوب والأمم، حيث يقيم كنيسة المصلوب المقدسة، وجسد المسيح المزين بجراحات الحب. مع كل صباح تنطلق نفس المؤمن نحو السماء من مجدٍ إلى مجدٍ (2 كو 3: 18)، ويُسر بالملكة الجالسة عن يمين الملك (مز 45: 9) تسحق بالصليب رأس الشيطان، وتحطم كل حيّله وخطاياته.
    6. يرى في عقله كما في أعماقه، ليس مركزاً للكبرياء والاعتداد بذاته وبرأيه، إنما يرى عقله مقدساً للرب. يرى عقله لا يُحدّ بالجمجمة إنما يمثل الله الساكن في الأعالي ولا تحدّه السماء ولا الأرض. إنه يشتهي أن يلتصق بالرب الساكن في السماء الذي نزل إلى الأرض ليحتل بحبه وتواضعه آخر صفوف البشرية.

7. إذ يلتزم **بقراءة الكتاب المقدس** ليحفظ الوصية الإلهية لا يسمع صوتاً يصدر أوامر ونواهٍ، إنما يقدم له حُلِيّ يزيّن نفسه كعروسٍ تُعدّ لتحمل أيقونة عريسها السماوي.
8. في **ممارسته للأصوام** والمطانيات والنسك لا يشعر بضيقٍ وتعبٍ وإرهاقٍ، بل انضمام إلى خورس السمائيين الحاملين قيثارات سماوية.
9. في **انشغاله بالصليب**، يُدرك أنه يتمتع بالشركة مع المصلوب المنطلق من جبل الجلجثة كما بمركبة إلهية نحو الجحيم، يزلزل أساساته ويهدم أسواره ويفتح أبوابه لكي تنطلق النفوس إلى الفردوس حاملة برّ المسيح.
10. عندما **يقدم صدقة** يشعر مع القديس يوحنا الذهبي الفم أنه في خجلٍ شديدٍ، لأنه يقدم للمسيح قليل القليل مما وهبه.
11. إذ ينطلق إلى **ساحة القتال ضد إبليس** والخطية والملذّات الشريرة، يدرك أنه ليس طرفاً في المعركة، إنما هو مستتر في مسيحه غالب العالم وكل قوات الظلمة، يتلقف منه أكاليل النصر والغلبة.
12. من بركات البذل عن الذات، أن المؤمن وهو يلقي بكل شيء وراء ظهره أو تحت قدميه، **تتفرّغ بصيرته ليرى في داخله ملكوت الله** (لو 17: 21)، ويتعرّف على حقيقة نفسه بكونه سفير المسيح وأيقونته، ابن الله الوارث مع المسيح، الموسيقار الذي يشترك في خورس السمائيين، يتغنّى بقلبه وعواطفه وأحاسيسه وعقله وأيضاً بفمه!
13. أيضاً من بركات البذل **يتطلع إلى الأشرار والخطاة** لا ليدينهم على شرورهم وخطاياهم، إنما يتجلّى أمامه المسيح مخلص العالم باسطاً يديه ليحتضنهم ويعينهم على التوبة والتمتع بالحياة المقدسة.

❖ هب لي يا أيها المخلص، أن التقى بك على جبل الجلجثة.

أحني كتفي لكي أحمل بنعمتك صليبك.

تتهلل أعماقي فتترنم: "مع المسيح صليت، فأحيا لا أنا بل يحيا المسيح فيّ (غل 2: 20).

❖ أراك أيها المصلوب القائم من الأموات.

فلا تشتهي نفسي شيئاً، ولا تضطرب من الألام.

أرى جراحاتك مملوءة ببهاء حبك.

أراك بالصليب حطمت لعنة الخطية.

حوّلت الزناة إلى قديسين!

❖ صليبك رفعتني من التراب والرماد.

صليبك حوّل الأرض إلى سماء.

❖ صليبك كشف لي سرّ حبك وتواضعك.

وأنت الواحد من الآب أخذت شكل العبد،  
وقبلت الموت عني، موت الصليب.  
أما أنا فأني بذل أقدمه لأجلك؟!

يقول القديس يوحنا التبايسي: [مكتوب: من أراد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني (مر 8: 34)]. لا يستطيع الإنسان أن يحمل الصليب دون أن يجحد العالم، بل ينبغي له أن يبتعد عن كل الأشياء، إذ أن العزاء الخارجي يعطله عن الشيء الذي يقنتيه، فلا يمكن أن يثبت الحق في إنسانٍ إلا إذا قطع أولاً من ضميره أصل محبة المال، ولا يستطيع أن يسكن حب المسيح في الضمير إن لم يتجرد أولاً من حب المال... لا تتدم ولا تحزن أيها الإنسان عندما تكون فقيراً ومحتاجاً من أجل الله، لأن رجاء عزائك هو في الملكوت، ولا تصغر روحك إذا تضايقت بالجوع والعري، ولا تضجر بل افرح وابتهج بالرجاء الموضوع لك<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> دير السيدة العذراء- السريان: الآباء الحاذقون في العبادة، ج 2، 1952م، ص 184-185.